التحف المعدنيـــة

أتقن الفنانون الايرانيون صـناعة التحف المعـدنية قبل الاسـلام . وظلت لهم المكانة السامية فى هـذه الصناعة بعد أن أصبحت بلادهم جزءا من العالم الاسلامى . وقد كتب ابن الفقيه الهمذانى فى القرن الثالث الهجرى (التاسـع الميلادى) يصف مهارة الايرانيين فى إنتاج التحف المعدنيـة :

«ولفارس فضل فى اتخاذ الآلات الظريفة المحكمة من الحديد حتى لقد قال بعض الحكماء لما وقف على أشياء ظريفة عند بعض الملوك من آلات فارس : لقـد ألان الله عز وجل لهؤلاء القوم الحـديد وسخره لهم حتى عملوا منـه ما أرادوا فهـم أحذق الأمة بالأغلال والأقفال والمـرايا وتطبيع السـيوف والدروع والجواشن[1] ... » .

والواقع أن التحف المعدنيـة الساسانية عليها مسحة من القوة والعظمة قل أن توجد فى تحف معدنية أخرى . وخير دليـل على ذلك ما وصل الينا من الصوانى والأطباق الذهبية والفضية ذات الزخارف البارزة . وأكثر هذه التحف عثر عليها فى جنوبى الروسيا وشمالى إيران ؛ وهى محفوظة الآن فى متحف الأرميتاج بمدينة لينينغراد .

فى فجـــر الاسلام

وطبيعى أن صانع التحف المعدنية فى الأسلام لم يقبل على عمل التماثيل ، على النحو الذى نعرفه فى الفنون الغربية ، حيث ورث الفنانون الأساليب

---

(١) أنظر كتاب البلدان لابن الفقيه ص ٢٥٤

الفنية الاغريقية والرومانية، وظل الجسم الانسانى عندهم أروع آيات التعبير الفنى وأعظمها على الاطلاق[1] .

ولدينا صنفان من التحف المعدنيـة يمكننا اعتبارها حلقة الاتصال بين الطراز الساسانى والطرز الاسلامية فى إيران؛ فان بعض التحف من هـذين الصنفين يرجع الى العصر الساسانى فى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد، وبعضهـا يرجع الى بداية العصر الاسـلامى أو الى القرنين السابع والثـامن (الأول والثانى للهجرة) . هذان الصنفان هما مجموعة من الأباريق البرونزية ومجموعة من تحف معدنية على شكل حيوان أو طائر .

أما الأباريق فذات أشكال مختلفة، ولها فى أكثر الأحيان مقبض طويل وصنبور ممتد؛ وقد تزين برسوم حيوانية أو آدمية فى مناطق محدودة؛ ولكن الغالب فيها قبـل الاسلام بساطة الزخرفة . على أن ما صـنع منها فى العصر الاسلامى ظل محتفظا بالأساليب الفنية الساسانية الى حد كبير، ولم يدخل عليه إلا شىء يسير من الأناقة ودقة الشكل؛ كما أن الصنبور أصبح فى أغلب الأحيان على بدن الابريق، وليس فى فوهته؛ بل اننا نجد الصنبور فى بعض القطع على شكل طائر أو حيوان . وفضلا عن ذلك فان الزخارف فى الأباريق الاسلامية أدق وأصغر حجما وأطرف منظرا .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة إبريق بديع من البرونز كشف أثنـاء التنقيب عن الآثار بمدينة أبى صير فى مصر الوسطى، حيث قتل مروان ابن

(١) نلاحظ، فضلا عن ذلك، أن الفنان الإيرانى كان لا يوفق كثيرا فى التحف المعدنية إلى إبراز الميزة الفنية الأساسية فى قومه وهى الإحساس الشديد بجمال الألوان والنجاح فى الجمع بينها جمعا يفيض بالبهجة والحياة، كما يتجلى فى الآثار الفنية التى خلفها المصورون والخزفيون والنساجون فى إيران .

محمد آخر خلفاء بنى أمية . و بدن هذا الابريق كروى ومزين بنقوش تمثل عقودا ، فى باطنها دوائر ، وتحت الدوائر رسوم حيوانات وطيور . ورقبة الابريق مستقيمة ومزينة بدوائر متماسة وبزخارف نباتية مخرّمة[1] . والصنبور على شكل ديك كبير مبسوط الجناحين ومشدود الجسم . وهذا الابريق بديع الشكل وجميل بزخارفه المحفورة والمخرمة ، مما حمل علماء الآثار الاسلامية على اعتباره تحفة ملكية ، وعلى نسبته الى الخليفة مروان الثانى الذى لقى حتفه فى نفس المكان الذى عثر فيه المنقبون على هذا الابريق .

أما التحف المعدنية المصنوعة على شكل حيوان أو طائر فقد كانت ساسانية الروح ، وإن نسب أكثرها الى بداية العصر الاسلامى[2] . وهى مباخر أو آنية للماء على شكل بطة أو ديك أو غزال أو حصان أو أسد (انظر شكل ١٣٩) .

ولعل أبدعها بطتان من مجموعة بو برنسكى فى متحف الأرميتاج بلينينغراد ؛ أحداهما من العصر الساسانى والأخرى من فجر الاسلام . وتمتاز الأولى بأنها ملساء ، بينما سطح الثانية مملوء بالخطوط والثنايا والأجزاء البارزة أو المنخفضة . وثمة تحفة أخرى من هذا الصنف كانت محفوظة فى مجموعة اندجودجيان Indjoudjian وهى على شكل ببغاء[3] ، زخارفها تشبه الرسوم التى عرفناها على خزف « جبرى » ، مما يحملنا على نسبة هذه التحفة الى القرن الرابع أو الخامس الهجرى (العاشر أو الحادى عشر الميلادى) .

---

(١) انظر اللوحتين ١٢٣ و ١٢٤ ، الأشكال ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٨

(٢) قارن A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٤٧١ ، حاشية ١

(٣) هذه التحفة فى مجموعة المسيو جان بوتزى Jean Pozzi بباريس .

وتذكرنا هـذه المباخر[1] أو الأوانى المجسمة بالأوانى النحاسـية والبرونزية التى صنعها الفاطميون على شكل الحيوان والطير، كما تذكرنا بالآنية التى نقلها الأوربيون عن الشرق فى العصور الوسـطى، وكانوا يصنعونها من النحاس الأصفر على شكل فارس أو حيوان أو طائر ليستخدمها رجال الدين فى الطقوس الكنسية، وكانت تسمى «اكوامانيل»[2].

وفضلا عن ذلك فقد استعملت أشكال الحيوانات المجسمة، بعد ذلك، فى ضرب من التحف الشماعد والأباريق ينسب الى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)؛ وقد تكون بعض هذه القطع أقدم من ذلك؛ لما نراه فيها من قرب العهد بالروح الساسانية فى الشكل والزخرفة.

ومن التحف المعدنيـة التى تنسب الى إيران والعراق فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) مرايا من البرونز، تشبه المرايا الصينية، وعليها زخارف بارزة تمثل فرعا نباتيا يحف به من الجانبين رسم أبى الهول، وحول هذه المجموعة شريط دائر من الكتابة الكوفية، أو عليها رسوم آدمية وحيوانية أخرى تبـدو فيها مهارة الفنان فى إعداد الزخرفة لشـغل المساحة الدائرية.

---

(١) الواقع أن الفنانين الايرانيين أصابوا توفيقا عظيما فى تنويع أشكال هذه المباخر فكان منها الكبير والصغير والاسطوانى والمكعب والمستدير والمكشوف وذو الغطاء المخرم وما إلى ذلك. انظـر E. Kühnel : Islamische Räuchergerät فى مجلة متاحف برلين، أغسطس وسبتمبر سـنة ١٩٢٠ ص ٢٤١ — ٢٤٩ (Berliner Museen, Berichte aus den Preussischen Kunstammlungen XLI. Jahrgang. Heft 6). وراجع A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٤٨٦

(٢) انظر كتابنا «كنوز الفاطميين» ص ٢٣٣ — ٢٣٨

وكان جل هـذه المرايا من البرونز أو الصلب ؛ ولبعضها مقبض ، وللبعض الآخر حلقة تتصل بجزء بارز فى وسط السطح ذى الزخرفة (انظر شكل ١٤٤).

كما أن الفنانين الايرانيين فى ذلك العصر صنعوا مباخر مختلفة الشكل، بعضها ذو زخارف مخرمة ، وفى بعضها أشكال حيوانات صغيرة[1] . وصنعوا كذلك المسارج والهواوين[2] والسلطانيات ذات الأشكال الأنيقة .

والواقع أن جل ما نعرفه من التحف المعـدنية الايرانيـة بين القرنين الثـالث والسادس بعـد الهجرة (التاسع والثانى عشر بعـد الميلاد) عثر عليه فى خراسان وهمذان والرى وسمرقند ؛ وزخارفه من رسـوم الحيوان[3] والفروع النباتية والكتابة الكوفية ؛ وكلها محفورة بدقة تناسب جمال الشكل ؛ على أن ما يعـلوها من الصـدأ فى الوقت الحـاضر يمنع ظهور التباين بين الزخارف والمساحات التى لا رسم فيها .

ولكن ثمة بعض تحف لا يزال لها جمالها الأول؛ ومنها عدد من الصوانى فى كل منهـا موضوع زخرفى يتوسـط قاع الصينية وتحيط به موضوعات أخرى محفورة على هيئة دوائر ذوات مركز واحد (انظر شكل ١٤٣) .

---

(١) كانت تماثيل هذه الحيوانات الصغيرة توجد ، فضلا عن ذلك ، فوق مظلات الأمراء، وعلى مقابض الأوانى أو المسارج . كما كانت هناك تماثيل آدمية صغيرة تزين بها جوانب العلبات المعدنية ، على نحو ما نرى فى علبـة محفوظة فى مجموعة ستورا Stora ومؤرخة من سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧ م) انظر An illustrated Souvenir of the Exhibition of Persian Art (London 1931) ص ٢٠

(٢) كان بعض الهواوين جليل المنظر بديع الزخارف ولم يكن استعمال الهاون فى سحق البهار فى البيوت فقط ، بل كان رجال الطب يكثرون من استخدامه فى سحق الأدوية (انظر شكل ١٥٠)

(٣) من الرسوم التى ذاع استخدامها رسم فرس ذى جناحين لعله البراق الذى قيل إنه كان مطية النبى عليه السلام فى الاسراء والمعراج .

فى عصر السلاجقة

كان للتحف المعدنية فى عصر السلاجقة القوة والجلال اللذان امتازت بهما الصناعة الساسانية، واللذان كانا يناسبان طبيعة السلاجقة أنفسهم ؛ كما كان لهـا فى بعض النواحى الأخرى دقة وظرف يناسبان اعتناقهم الدين الاسـلامى وغرامهم الجديد بالأدب والفن الايرانيين ؛ فقد خلف لنـا هـذا العصر بعض الأوانى البرونزية ذات المظهر القوى، والى جانبها تحف من الفضة والذهب، تلفت النظر بثروتها الزخرفية ورسومها الدقيقة المطعمة أو المفرغة فى سطح الاناء . وفى المتاحف والمجموعات الأثرية الخاصة — ولاسيما مجموعة المستر رالف هرارى — تحف كثيرة من هذا النوع، وتشمل عددا كبيرا من الكؤوس واللعب الصغيرة والمباخر والأباريق والملاعق والأجزاء المعدنية من عدة الفرس. وعليها زخارف دقيقة من رسوم الحيوانات والطيور التى ألفناها فى فنون إيران، فضلا عن الكتابات الكوفية الأنيقـة وبعض الرسوم الآدمية .

واستخدم الفنانون شتى الأساليب الصناعية فى عمل هذه الزخارف فكان بعضها محفورا ، وبعضها مفرغا ، وبعضها وثيق الصلة بأسلوب « النيلّو » ؛ وهو أن يحفر الرسم على اللوحة من الفضـة، أو الفضـة الممزوجة بالذهب، ثم يصب فى خطوطه المحزوزة مركب مرتفع الحرارة من النحاس والرصاص والبودق والكبريت وملح النشادر، وبعد برود هـذا المركب وتلميع اللوحة يصير فيها تطعيم أو «تكفيت» أسود على أرضية فاتحة، ويزداد بذلك الرسم دقة ووضوحا . وفضلا عن ذلك كله فقد كان فى بعض تلك القطع زخارف بارزة وأخرى مذهبة أو بالمينا .

* * *

ولكن أسـلوبا جديدا فى زخرفة التحف المعدنية نشـأ على يد الصناع المسلمين فى بلاد الجزيرة وفى إيران، ثم بلغ غاية الدقة والاتقان فى منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . وهو تطبيق البرونز والنحاس أو تنزيلهـما (تكفيتهما) بالفضـة والذهب . والمعروف أن التطبيق أو الترصيع أو التركيب أو «التكفيت» طريقة فى الزخرفة، قوامها حفر رسوم على سطح معدن أو خشب ثم ملء الشقوق التى تؤلف هذه الرسوم بقطع أخرى من مادة أغلى قيمة .

واذا تذكرنا أن الصناع كانوا ينتقلون من بلد الى آخر، وأن إيران و بلاد الجزيرة كانتا فى معظم الأحيان فى يد أسرة مالكة واحدة ، أدركنا صعوبة تمييز التحف المعدنيـة المطبقة بالفضـة والذهب فى إيران من التحف التى صنعت فى الموصل ، اللهـم الا اذا دلت كتابة تاريخية فى التحفة على محل صناعتها ، وهذا نادر . أما الزخارف المطبقة أو المكفتة فى هـذه التحف فقوامها أشرطة من رسوم دقيقة فيها حيوانات وفيها كتابات باللغة العربية وفيها صور آدمية لأشخاص قصيرى القامة ذوى عمائم وملابس عربية وأحزمة فى وسطهم . وقـد يكون فى الأشرطة جامات بهـا مناظر صيد أو طرب أو فروسية .

ولا يزال أبدع مثال لهذه الصناعة إناء من مجموعة بو برنسكى Bobrinsky فى متحف الارميتاج، عليه كتابة عربية تثبت أنه صنع سـنة ٥٥٩ هجرية (١١٦٣ م) فى مدينـة هراة على يد صـانع اسمه محمد بن عبـد الواحد ،

وطبّقه صانع آخر اسمه حاجب مسعود بن أحمد النقاش بهراة[١]، وذلك لأحد كبار التجار الايرانيين المنسوبين الى مدينة زنجان . وزخارف هذه التحفة الثمينة مطبقة بالفضة والنحاس الأحمر، وتتكون من أشرطة أفقية فيها مناظر موسيقى ورقص وطرب وشراب وصيد وبينها كتابات عربيـة ، كوفية ونسخية، وتنتهى بعض قوائم الحروف فيها برؤوس آدمية وحيوانية[٢] (انظـر شكل ١٤٠) .

وثمة بعض قطع أخرى عليها كتابات وإمضاءات[٣] وتدل كلها على ازدهار صناعة التحف المعدنية فى شرقى إيران، ولا سيما فى هراة؛ كما اشتهرت بهذه الصناعة مدن أخرى مثل إصفهان وهمذان وشيراز .

ومن المرجح أن طراز مدينة الموصل فى صناعة التحف المعدنية قد نقل بعض أساليب هذه الصناعة عن إيران . بل الواقع أن الفرق بين الطراز الايرانى والطراز الموصلى لايزال غير واضح كل الوضوح؛ وقد مر بنا أن التمييز بينهما أمر غير يسير؛ ولكن المعـروف أن بعض الصـناع الذين جاءت إمضاءاتهم على تحف من صناعة الموصل لهم أسماء ذات مسحة إيرانية، ممـا يحملنا على أن نتسـاءل هل هاجر هؤلاء الصناع من إيران الى بلاد الجزيرة، وأتيح لهم أن ينتجوا فيهـا أبدع التحف المعدنية فى الفن الاسلامى . ومن

---

(١) ليست هـذه التحفة هى الوحيدة التى يظهر من الامضاءين الموجودين عليها أن الرسام الذى رقم زخرفتها والفنان الذى عمـل فى تطبيق هـذه الزخرفة كانا شخصين مختلفين . أنظر A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٤٨٩ حاشية ٤

(٢) كتب الأستاذ فيسلوفوسكى Veselovsky رسالة طويلة عن هـذا الاناء؛ ولكنها باللغة الروسية، وقد ظهرت فى سنت بطرسبرج سنة ١٩١٠

(٣) راجع A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٤٩٠ — ٢٤٩١

المحتمل أن الفنانين الايرانيين فروا من وجه المغول فى بداية القرن السـابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . ونزحوا الى الغرب فى العـراق ، كما فر الفنانون من العراق فى منتصف القرن السابع ولجأوا الى مصر وسورية .

والمعروف أن الصـور فى المخطوطات قد تكون عنصرا نافعا فى معرفة الاقليم الذى تنسب اليه بعض التحف المعدنية والعصر الذى صنعت فيه ؛ ولكننا لا نستطيع أن ننتفع بها فى هذا الصدد إلا فيما يلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) الذى ترجع اليه أقدم المخطوطات المصورة المعروفة .

والحق أننا نعرف بوساطة الصور فى المخطوطات أشكال بعض التحف المعدنيـة التى لم تصـل الينا نمـاذج منها . ومن ذلك مبخرة كانت معروفة فى القرنين التاسع والعاشر بعد الهجرة[1] (الخامس عشر والسادس عشر بعـد الميـــلاد) .

كما أن التحف الخزفية التى وصلتنا قد تساعدنا أحيانا فى معرفة أشكال التحف المعدنية ؛ لأن العلاقة كانت وثيقة بينهما ؛ ولا غرو فقد كان بعض التحف من الخزف يمكن استخدامه فى نفس الغرض الذى استخدمت فيـه التحف المعدنية ؛ ولكننا نعلم أن طبيعة المـادة التى تصنع منها التحفة كان لهـا أثر كبير فى تشكيلها .

وطبيعى أن ازدهار صناعة تطبيق التحف المعدنية لم يقض على أسلوب الزخرفة بالرسوم البسيطة المحفورة ؛ فقد ظل هـذا الأسلوب الصناعى الأخير

---

(١) انظر المصدر السابق ج ٣ شكل ٦ ، ١٨٠ ؛ و Martin : Miniature Painting لوحات ٤٥ و ٧٢ و ٩٧

يتطور فى سبيل الاتقان، كما يظهر من مجموعة كبيرة من الأوانى والأباريق التى ترجع إلى النصف الثانى من القرن السادس والى القرن السابع بعد الهجرة (النصف الثانى من القرن الثانى عشر والى القرن الثالث عشر بعد الميلاد) والتى لا تطبيق فيها ؛ وانما زينت برسوم حيوانات متقنة وفروع نباتية دقيقة ووريدات جميلة متزنة، فضلا عن الكتابات الكوفية، على نحو ما نرى فى بعض أوانى المياه ذات الزخارف المحفورة والبارزة بعض البروز (انظر شكل ١٤٨) .

* * *

وقد عثر حديثا على شماعد من البرونز فى مدينة الرى تشبه شماعد العصر الفاطمى بعض الشبه ، بقاعدتها ذات ثلاثة الأرجل ورقبتها الأسطوانية[1] ؛ ولكنها تمتاز عنها بأنها غنية بزخارفها المخرمة والمحفورة، وبأنها أطول وأخف وزنا (أنظر شكل ١٥١ و ١٥٢) .

فى عصر المغول وعصر بنى تيمور

على أن سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) كان سببا فى انتقال صناعة التحف المعدنية الى سورية ومصر ؛ ولكن الركود الذى أصابها فى إيران كان مؤقتا ؛ فلم يلبث أن عاد الى هذه الصناعة ازدهارها على يد التيموريين فى القرنين الثامن والتاسع بعد الهجرة (الرابع عشر والخامس عشر بعد الميلاد)؛ وامتازت بالأناقة والتهذيب فى أشكال الأوانى، كما تطورت الزخارف وأصبحت الصور الآدمية أدق رسما وظهرت فى ملابس

(١) انظر كتابنا « كنوز الفاطميين » ص ٢٣٩ — ٢٤١

الأشخاص الأساليب الايرانيـة، كما أصبحت الزخارف الكتابية إيرانية بعـد أن كانت فى العصور السابقة عربية كوفية .

وقد ازدهرت فى شمال غربى إيران أو فى أرمينية مدرسة فى إنتاج التحف المعدنيـة المزينة بالزخارف المحفورة والمطبقة بالنحاس والفضـة . وتنسب آثار هـذه المدرسة الى القرنين السادس والسابع بعد الهجرة (الثانى عشر والثالث عشر بعد الميلاد) ؛ وأهمها آنيـة ذات أضلاع وشماعد عليها تماثيل بارزة، معظمها يمثل الأسد أو الصقر . ومن أبدع هـذه التحف شمعدان فى مجموعة المستر رالف هرارى (أنظر شكل ١٤٥) .

وقد استخدمت الزخارف البارزة فى بعض التحف الفنية الاسلاميـة، كما نرى على إبريق محفوظ فى متحف الهرميتاج ، ويرجع الى القرن الثالث أو الرابع الهجرى (التاسع أو العاشر الميلادى) . ولهذا الإبريق ثلاث أرجل تشبه الطيور فى شكلها، أما هيئته العامة فتذكر بمشكاوات المساجد[1] .

وقد عثر على كنز من التحف المعدنية فى مدينـة همذان سنة ١٩٠٨ ، محفوظ الآن فى متحف قصر جلستان بعاصمة الامبراطورية الإيرانية .

وثمة صلة وثيقة بين هذه التحف وبين منتجات المدرسة الفنية فى مدينة الموصل ؛ وقد يكون السر فى ذلك رحيـل بعض الفنانين من الموصل الى إيران، ويحتمل أن الصناع الايرانيين عنوا بتقليد الآثار الفنية الموصلية تقليدا دقيقا ، كما يظهر لنا فى صـينية من النحاس ذات زخارف محفورة ومطعمة بالذهب والفضة من القرن السابع الهجرى[2] (الثالث عشر الميلادى) .

(١) انظر V. Smirnov : Argenterie orientale اللوحة ٧٢

(٢) أنظر اللوحة ١٤٢ شكل ١٥٧

ومن أبدع التحف المعدنية الإسلامية التى يمكن نسبتها الى عصر المغول الإناء الكبير الذى يعرف باسم « معمدانة سان لوى » Baptistère de Saint Louis ؛ لما يقال من أن أولياء العهد فى فرنسا كانوا يعمّدون فيه منذ لويس التاسع (١٢١٥ — ١٢٧٠ م) . وهذه التحفة النفيسة محفوظة الآن فى متحف اللوفر . وقوام زخرفتها رسوم مطبقة بالفضة ، بينها صور آدمية مغولية السحنة وشريطان بهما صور حيوانات متتابعة[١] . وعليها أمضاء صانعها : « محمد بن الزين » . وأكبر الظن أنها ترجع الى نهاية القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى) .

والواقع أن صناعة التحف المعدنية فى إيران بلغت عصرها الذهبى فى نهاية القرن السابع وفى القرن الثامن بعد الهجرة (نهاية الثالث عشر وفى القرن الرابع عشر بعد الميلاد) . وحسبنا للدلالة على ذلك الأباريق الجميلة التى كانت تصنع فى شمال غربى إيران ، وتمتاز ببدنها المضلع الذى تغطيه الأشرطة والجامات أو المناطق ذات الرسوم الآدمية والحيوانية والكتابية على أرضية من السيقان والفروع النباتية المطبقة بالفضة والذهب . وصفوة القول أن التحف التى وصلتنا من هذا العصر تلفت النظر بما فى زخارفها من أناقة واتزان ، فضلا عن أننا نجد أنها لا تختلف عما سبقها من التحف الإيرانية الإسلامية فى خلوها من اسم الصانع او البلد أو صاحب التحفة ، على عكس التحف المصنوعة بعد نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ومن أنفس التحف المعدنية المطبقة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) شمعدان فى مجموعة المستر رالف هرارى (أنظر شكل ١٥٥) .

(١) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٣٢٩

وهو مطبق بالذهب والفضة، وله هيئة الشماعد التى امتاز بها العالم الاسلامى منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) : قاعدة أسطوانية، فوقها رقبة صغيرة أسطوانيـة أيضا . وزخارف هـذا الشمعدان دوائر وجامات ذات أربعة فصوص، ورسومها إما هندسية أو زهور محورة عن الطبيعة . وعليه كتابة تدل على أنه صنع سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) على يد صانع شيرازى اسمه محمد بن رفيع الدين .

ومنهـا كذلك طست من النحاس نجمى الشـكل وذو زخارف محفورة ومطعمة بالفضة والذهب من القرن السابع أو الثامن الهجرى (الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادى) . وهذه التحفة محفوظة فى المتحف المترو بوليتان بنيو يورك (انظر شكل ١٥٦) . وقوام الزخرفة فيهـا وريدة فى وسطها ، تمتـد منها خطوط الى الحافة، فتكون مناطق مملوءة بالرسوم الآدمية والفروع النباتية والزهور .

والملاحظ أن الفروق تزداد ظهورا بين التحف المعدنية فى إيران والعراق ومصر، منذ القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ومما يلفت النظر فى التحف الايرانية أنها خلت من الأشعرة (الرنوك) التى كانت تزين معظم التحف التى صنعت للمماليك فى مصر . والواقـع أن هذه الرنوك ميزة من ميزات الطراز المملوكى فى وادى النيل[1] .

وقد تطورت صـناعة تطبيق التحف المعدنيـة فى نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر بعـد الهجرة (الخامس عشر وبداية السادس عشر بعد الميلاد)؛ فأصبحت الزخارف المفضلة هى الخطوط والرسوم الهندسية المتصلة

(١) راجع L. A. Mayer : Saracenic Heraldry

على أرضية من فروع نباتيـة دقيقة ، والواقع أن معظم التحف المعدنية التى وصلتنا من نهاية العصر التيمورى تبدو عليها مسحة من الاضمحلال ؛ ولكن أكبر الظن أن هذا راجع الى فقد النمـاذج الطيبة من هـذه التحف[1] ؛ فقد كانت سائر الفنون زاهرة فى هـذا العصر ؛ وكان صناع الأسلحة ينتجون منها أحسن الأنواع ، فغير محتمل أن يكون صناع التحف المعدنية وحدهم هم الذين طرأ على أساليبهم الفنية الضعف والاضمحلال .

وقد انتقل الأسلوب الايرانى فى صناعة التطبيق الى مدينة البندقية على يد صناع من الايرانيين هاجروا اليها ؛ ومنهم محمود الكردى الذى اشتغل بها فى بداية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ؛ كما انتقل كذلك الى الهند بفضل الجوار وانتقال الصناع والفنانين[2] .

فى العصر الصفوى

والمعروف أن صـناعة التحف المعدنيـة ظلت زاهرة فى عصر الدولة الصفوية (٩٠٧ — ١١٤٨ هـ ، أى ١٥٠٢ — ١٧٣٦ م .)؛ ولكن الآثار الباقية من ذلك العصر قليلة ويمكننا بوساطتها أن نلاحظ التطور الذى طرأ على الزخارف وجعلها تمثـل الروح التى نعـرفها فى سائر ميادين الطرز الايرانية فى العصر الصفوى ؛ فقد غلبت على التحف المعدنيـة فى هذا العصر رسوم الفروع النباتية والصور الآدمية والحيوانية التى تذكر بما يزين السجاجيد

(١) لا يفوتنا أيضا أن كثيرا من التحف كانت تصهر و يعاد تشكيلها ، عند ما يصبح شكلها الأول غير مألوف .

(٢) يمكننا أن نعتبر الطراز الايرانى البندقى والطراز الايرانى الهنـدى ذيلين لصناعة التحف المعدنية فى إيران ، لتأثرهما بالأساليب الايرانيـة تأثرا شديدا ، ولكننا نؤثر ألا نعرض لها هنا ؛ لأن ميدانهما كان بعيدا عن إيران بعد أن ثبتت حدودها الجغرافية على يد الأسرة الصفوية .

وصور المخطوطات . وقلّ استخدام الأشرطة الزخرفيـة وصار سطح التحفة مغطى برسوم متصلة كأنها الوشى أو التطريز ؛ وفيهـا بحور أو مناطق ذات زخارف صغيرة الحجم أو كتابة قد يكون فيها اسم الصانع .

والواقع أن التحف المعدنيـة فى العصر الصفوى امتازت بأناقة شكلها وبأن أكثر ما نراه عليها من الكتابة يكون باللغة الفارسية من شعر أو نصوص تاريخية ، كما أننا نجـد أسماء الأئمة الاثنى عشر على عدد كبير منها . وفضلا عن ذلك فان النحاس الأصفر المستعمل فيها أكثر لمعانا وميـلا الى اللون الذهبى ، أما النحاس الأحمر فانه يبيض بالقصدير تقليدا للون الفضة .

وقد ظهرت أبهة العصر الصفوى فى كثير من الأوانى التى كانت ترصع بالذهب والأحجار النفيسة والتى لايزال بعضها محفوظ فى متحف طوبقابوسراى باسـتانبول ، ولعلّه ممـا غنمه السلطان سليم فى حروبه مع الشاه اسماعيـل الصفوى ، مما يجعل تاريخ صناعته قبل سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) .

وكانت الأبواب والصناديق تزين بصـفائح من الصلب ذات زخارف تمثل أناقة الفن ودقة الزخارف فى ذلك العصر[1] (انظر شكل ١٦٢) . والواقع أن جمال الفروع النباتية والأرابسك ظل محفوظا فى التحف المعدنية الايرانية الى العصور الأخيرة .

* * *

وقد كان الفنانون الايرانيون يصنعون التحف من الذهب والفضـة ، فيتخذون منهما الأوانى والحلى ؛ ولكن ما وصلنا فى هذا الميدان قليل جدا ، لأن التحف الذهبية والفضية كانت تصهر ويعاد تشكيلها .

(١) راجع A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٥١٤ — ٢٥١٥

على أن القسم الاسلامى من متاحف الدولة فى برلين به قرطان ذهبيان فيهما زخارف محفورة ومخرمة تمثل أرنبين متواجهين وغريفونين متقابلين[(١)] . كما أن متحف بناكى فى أثينا ومعهد الفنون فى مدينة ديترويت Detroit وبعض المجموعات الفنية الخاصة ، بها بعض قطع الحلى الايرانية من خواتم وأسورة وأقراط وما الى ذلك ، مما ينسب فى معظم الأحيان الى القرنين السادس والسابع بعد الهجرة (الثانى عشر والثالث عشر بعد الميلاد) .

ولكن من أبدع التحف المصنوعة من الفضة فى إيران صينية صنعت بأمر ملكة لتقديمها الى السلطان الب ارسلان السلجوقى ، ومحفوظة الآن فى متحف الفنون الجميلة بمدينة بوستن Boston ؛ ومؤرخة من سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٦ م) وعليها اسم صانعها : حسن القاشانى ، وفى وسطها وعلى حافتها كتابة بالخط الكوفى الكبير[(٢)] ، أما زخارفها فمن رسوم الحيوان والفروع النباتية (انظر شكل ١٤١)

كما أن مجموعة المستر رالف هرارى بها عدد من التحف الفضية التى كشفت حديثا وتنسب الى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى). وفيها مباخر وعلبات صغيرة وقنينات لماء الورد وما الى ذلك ، مما يمتاز بزخارفه

---

(١) راجع F. Sarre : Die Erwerbung einer in Südrussland gebildeten Sammlung aus islamischer Zeit. (١٩٠٧ — ١٩٠٨) فى السنة ٢٩ من Amtliche Berichte aus den koniglicheu Kunstsammlungen ص ٦٨ — ٧١

(٢) راجع Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe ج ٧ رقم ٢٦٦١ ص ١٦٤

الدقيقة المكونة من رسوم حيوانات متتابعة أو متواجهة ومن فروع نباتيـة جميلة جدا وعبارات بالخط الكوفى[1] (انظر شكل ١٤٢) .

أما العصر الصفوى فقـد امتاز بعـدد وافر جدا من الأوانى الفضـية والذهبية التى أعجب بها الرحالة فى قصور الشاه و رجال البلاط ؛ على أن قيمة مثل هذه التحف مادية أكثر منها فنية .

الأســـلحة

كانت إيران منذ العصور القديمة من أعظم المراكز الفنية شأنا فى صناعة الأسلحة بالشرقين الأدنى والأوسط . وطبيعى أنها تأثرت فى هـذا الميدان — كما تأثرت فى كثير من الميـادين الفنية الأخرى — بالأساليب الصناعية عنـد الأمم المجاورة ؛ وأتيح لها أيضا أن تؤثر فى تلك الأساليب . ومن ثم كانت العلاقة الوثيقة بين الأسلحة الإيرانية وما استعمله القوم من أسـلحة فى القوقاز وآسيا الوسطى والهند و بلاد العرب وتركيا ومصر والروسيا .

ولكن ما وصل الينـا من الأسلحة الإيرانية الأثرية نادر جدا ؛ ولسـنا نكاد نعرف أى قطعة من العصر الاسلامى قبل نهـاية القرن التاسع الهجرى (الخـامس عشر الميلادى) . على أن بعض الصـور التى كشفت فى حفائر مدينة طرفان بآسيا الوسطى تحتوى على رسوم أسلحة تدلنا على بعض ما كان مستعملا فى بداية العصر الاسلامى[2] . وفضلا عن ذلك فاننا نعثر فى صور بعض

---

(١) أنظر A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٥٠١ — ٢٥٠٣

(٢) انظـــر A. von Le Coq : Bilderatlas zur Kunst und Kultur-geshichte Mittelasiens ص ١٢

المخطوطات الإيرانية فى القرنين السابع والثامن بعـد الهجرة (الثـالث عشر والرابع عشر بعـد الميلاد) على رسوم أسلحة لم تصل الينا أى نماذج منهـا[١] . أما المدّة المحصورة بين نهاية القرن الأوّل الهجرى و بداية القرن السابع فاننا لانكاد نعرف عن الأسلحة فيها شيئا يستحق الذكر، اللهم إلا أن شمال شرق إيران كان مشهورا بالأسـلحة النفيسة وأن المصـادر الصينية تذكر أن أمير سمرقند سـنة ٩٥ هـ (٧١٣ م) أرسل كمية من السلاح بين الجزية التى كان يدفعهـا[٢] .

ولعل أقدم مانعرفه من الأسلحة الايرانية درع حديدى محفوظ بالمتحف الحربى Zeughaus فى برلين، ودرع فرس بالمتحف الحـربى فى باريس[٣]، وهما من القرن التـاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ثم جزء من درع فرس محفوظ بمتحف علم الشعوب فى ميونخ، ويرجع الى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . وثمة قطع أخرى من القرن العاشر محفوظة الآن بمتاحف الأسلحة الشهيرة ولا سيما فى برلين وتورينو .

---

(١) لعـل أكبر المجموعات من الأسلحة الايرانية فى العصر الصفوى ما غنمه السلطان سليم الأوّل فى حروبه مع الايرانيين حين استولى على تبريز سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤) ؛ وقد نقله الى استانبول ولا يزال محفوظا مع سائر الأسلحة التى غنمها فى سائر فتوحه والتى نراها اليوم فى المتحف الحربى التركى وفى متحف طوبقابوسراى .

(٢) انظـــر A Survey of Persian Art ج ٣ ص ٢٥٥٨ ؛ و L. Beck: Geschichte des Eisens ج ١ ص ٢٦١

(٣) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحـة ١٤٠٥ ولوحة ١٤٠٦ أ ولوحة ١٤٠٧ أ

وقد كانت الأسلحة فى العصر الصفوى تطبق (تكفّت) بالفضة والذهب وتزين بالرسوم الجميلة، وفى بعض الأحيان بالأحجار الكريمة أو النادرة . ومن أمثلة ذلك درع مغولى فى متحف طوبقابو سراى باستانبول، مكوّن من ترسين مستديرين أحدهما للصدر والآخر للظهر فضلا عن قطع أخرى للرقبة والبطن . والترسان من الصلب وعليهما آيات قرآنية مطعمة بالذهب[(١)] .

وظهر فى ذلك القـرن نوع جديد من الدروع اسمـه « جهار آينـه » أى المرايا الأربع[(٢)] . ويكون من أربع صفائح كبيرة من الحديد متصلة بوساطة "مفصلات" واحدى هـذه الصفائح لحماية الصدر والأخرى للظهر بينما الاثنتين الباقيتين للجنبين وفيهما ثقبان كبيران يخرج منهما الذراعان[(٣)] . وكثيرا ما كان هـذا الدرع يبطن بالحـرير ويلبس فوق الزرد . وكانت الصفائح غنية بالمناطق المزينة بالرسوم الجميلة من محفورة ومطبقة بالذهب، فضلا عن بعض الايات القرآنية التى تتصل بالحرب والنصر . وقد ذاع استعمال هذه الدروع فى الهند حتى منتصف القرن المـاضى .

أما الخوذات الإيرانية فان أقدم المعروف منها خوذة كشفت على مقربة من بودابست ، ولا تزال حتى اليوم محفوظة فى المتحف الأهلى المجـرى ؛ وعليها زخارف جميلة محفورة فى ثلاث مناطق، وقوامها فروع نباتية وكتابات كوفية مزهرة ورسـوم أزواج متقابلة من طائر العنقاء الخرافى[(٤)] . ويشـبه

---

(١) المصدر السابق، لوحة ١٤٠٦ جـ .

(٢) انظر F. Steingass : Persian-English Dictionary ص ٤٠٣

(٣) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٠٨

(٤) المصدر السابق ج ٦ لوحة ١٤١١ أ وج ٣ ص ٢٥٦٤ — ٢٥٦٥ وشكل ٨٥٣

طراز هـذه الزخرفة ما نراه على مجموعة من المنسوجات الإيرانية أو السورية التى ترجع الى القرن الثامن الهجرى[١] (الرابع عشر الميلادى) . وثمة خوذات أخرى ، أعظمها شأنا فى المتاحف الحربية باستانبول وموسكو وبرلين وفى المتحف الأهلى بكوبنهاجن ؛ ويرجع معظمها الى القرن التاسع والعاشر بعد الهجرة (الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد) .

وفى متحف بورت دى هال Porte de Hal بمدينة بروكسل خوذة نصف كروية ، وعلى حافتها السفلى مناظر صيد مطبقة بالذهب وكتابة تدل على أنها من عمل صانع اسمه حاجى سنة ١١١٢ هـ (١٧٠٠ م) . وقد احتفظ الإيرانيون بهذا النوع من الخوذات (أنظر شكل ١٦٦) حتى القرن الماضى .

وفى القسم الإسلامى من متاحف برلين درقة من الحديد ترجع الى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)، وقوام زخارفها المحفورة رسوم وريقات شجر وأخرى حلزونية الشكل[٢] . كما أن فى متحف تاريخ الفن بمدينة ڤينا درقة أخرى من الحديد ذات زخارف محفورة ومطعمة بالفضة والذهب ؛ وتنسب الى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) كما يظهر من طراز الرسوم الهندسية ورسوم الأرابسك الدقيقة التى تغطيها (انظر شكل ١٦١) .

وقد كانت التروس تصنع فى بعض الأحيان من أغصان شجر الصفصاف أو التين الملفوف بخيوط الصوف أو الحرير أو الذهب[٣] . ومن أبدع النماذج

---

(١) أنظـــر O. von Falke : Kunstgeschichte der Seidenweberei شكل ٨٥٣

(٢) A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤١٩ أ

(٣) انظر المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٦٧ — ٢٥٦٨ ؛ وقارن An illustrated souvenir of the exhibition of Persian Art (London 1931).

المعروفة من هذا الطراز ترس فى متحف الأسلحة الملكى بمدينة استوكهلم، ويمتاز هذا الترس بما عليه من رسوم حيوانية ونباتية جميلة[١].

على أن أبدع التروس الايرانيـة المعروفة ترس محفوظ فى متحف قصر اروزهاينايا Oruzheinaya بمدينة موسكو. وينسب هذا الترس الى بداية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى)، وعليه إمضاء صانعه: محمد. أمّا زخارفه فتغلب عليها رسوم الحيوانات المختلفة من أسد ونمر ودب وغزال وقرد وكلب وثعلب وغير ذلك. وحافة هذا الترس مذهبة ومرصعة بالجواهر[٢].

وقد كانت سيوف الايرانيين قبل الاسلام قصيرة ومستقيمة؛ ولم يطرأ عليها بعـده تغيير يستحق الذكر. وقد كانت إيران فى العصور الوسطى من أهم أقطار العالم الاسـلامى فى صناعة نصال السيوف من الصلب والحديد، كما شهد بذلك الجغرافيون والرحالة. على أن ما يعنينا من الناحية الفنية بنوع خاص هو أن هذه النصال كانت تطبق بالذهب والفضة ولا سيما فى بعض الأقاليم الشرقية من إيران. ومن أبدع السيوف الايرانيـة المعروفة سيف فى المتحف التاريخى بمدينة درسدن مرصع بالجواهر ويرجع الى نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى).

وقد ذاع اسم الفنان أسد الله الأصفهانى فى القرن الحادى عشر الهجرى، ووصلتنا بعض النصال المنسوبة اليـه، ومنها ما صنع للشاه عباس نفسـه. أمّا سيوف القرن الثـانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) فقد تطرق

---

(١) A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٢١

(٢) المصدر السابق ج ٦ لوحة ١٤١٧

الى صناعتها الانحـلال ، وأقبل القـوم على تزيينها بالجواهر تزيينا بلغ حد الإسراف فى بعض الأحيان .

ولعل أقدم الخناجر الايرانية المعروفة خنجر عثر عليه فى مدينة اوستر روده Osterrode من أعمال بروسيا الشرقية، ويظن أنه وصل اليها على يد التتار الذين غزوا تلك الأصقاع سنة ٨١٣ هـ (١٤١٠ م) . ومقبض هذا الخنجر حديدى وعليه آثار تذهيب وفيه زخارف من فروع نباتية ، يدل أسلوبها على أنه من صناعة القرن الثامن الهجرى (١) (الرابع عشر الميلادى) . وقد استعمل الايرانيون منـذ القرن التاسع الهجرى خناجر ذات نصال مقوسـة قليلا ؛ كما ذاعت بينهم فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الهجرة (السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد) السيوف والخناجر ذات النصال المقوسة تقويسا ظاهرا (انظر شكل ١٥٩) .

وفى متحف الهرميتاج بعض خناجر إيرانيـة من القرن الحـادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) تشهد بالثروة الزخرفية العظيمة التى امتازت بها بعض الأسلحة الثمينة فى ذلك العصر ، والتى تظهر فى رسومها الشـبيهة بالمخرمات (الدانتلا) فى دقتها وجمالها .

وقد وصلنا اسم فنان من صناع هذه الخناجر . هو أحمد بكلى (أو تكلى)، الذى نجد إمضاءه على خنجر فى متحف طوبقابو سراى باستانبول، مؤرخ من سـنة ٩٣٣ هـ (١٥٢٧ م) وكان من أسلحة سليمان الأول سلطان الدولة العثمانية بين عامى ٩٢٧ و ٩٧٤ هـ (١٥٢١ — ١٥٦٦ م) .

(١) المصدر نفسه ج ٦ لوحة ١٤٢٥ أ و ١٤٢٨ أ ، ج ٣ شكل ٨٥٥

ولا يفوتنا قبل إتمـام هذا الفصل أن نشـير الى ما طرأ على التحف المعدنيـة الايرانية من ضعف و إضمحلال فى نهـاية القرن الحـادى عشر وفى القرن الثانى عشر بعد الهجرة (السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد) ؛ فقد عنى القوم بانتاج الأوانى الرخيصة للأسواق وذوى الذوق العادى، ممن لا يستطيعون أن يدفعوا نفقات التحف الفنيـة الدقيقة والتى يقضى فيهـا الصناع الوقت الطويل ويبذلون الجهود المضنية .

وعلينا أن نلاحظ أيضا أن التحف المعدنية الاسـلامية ظلت عصورا طويلة بدون أن يعنى بجمعها الهواة الغربيون والشرقيون عنايتهم بجمع السجاد أو الأقمشة أو المخطوطات أو الزجاج . ولذا كان المعروف منها لا يكاد يذكر الى جانب ما أنتجه الصناع فى العصر الاسلامى .